مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(غلاطية ٣: ٢٣–٢٩، ٤: ١–٥)

يا إخوةُ قبل أن يأتي الإيمانُ كنَّا محفوظينَ تحت الناموسِ مُغلَقاً علينا إلى الإيمان الذي كان مزمَعاً إعلانه* فالناموسُ إذاً كان مؤدِّباً لنا يُرشِدنا إلى المسيحِ لكي نُبرَّر بالإيمان* فبعد أن جاءَ الإيمانُ لسنا بعدُ تحت مؤدِّبٍ* لأنَّ جميعَكم أبناءُ اللهِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع* لأنَّكم أنتم كلَّكم الذين اعتمدتم في المسيحِ قد لبستُم المسيح* ليسَ يهوديٌّ ولا يونانيٌّ. ليس عبدٌ ولا حرٌّ. ليس ذَكَرٌ ولا أُنثى. لأنَّكم جميعكم واحدٌ في المسيح يسوع* فإذا كنتم للمسيحِ فأنتم إذاً نسلُ إبرهيمَ وورثةٌ بحسَبِ الموعِد* وأقولُ إنَّ الوارث ما دام طفلاً فلا فرقَ بينه وبين العبدِ مع كونِه مالكَ الجميع* لكنَّه تحت أيدي الأوصياءِ والوكلاءِ إلى

خلق العالم في ستة أيام

يعلّمنا الكتاب المقدّس أنّ الله خلق العالم المنظور في ستّة أيّام. من المؤكّد، بالنسبة إلى المفهوم الكتابي، أنّ الأمر لا يتعلّق بأيّامٍ عادية، لأنّ اليوم متعلّق بالشمس، والشمس خُلِقت في اليوم الرابع (تك ١: ١٦). ففي اللغة الكتابيّة، عبارة «يوم» لا تعني الساعات الأربع والعشرين، بل تعني فترة زمنيّة طويلة الأمد (مز ٩٤: ٨، ٢ بط ٣: ٨).

خلق الله العالم في ستّة أيام، وفي اليوم السابع استراح. لا نجد نهايةً بعد اليوم السابع كمثل النهايات التي في الأيام الستّة السابقة («وكان مساء وكان صباح يوماً آخر»). فاليوم السابع لم يُنجَز بعد، وهو ما زال مستمراً. كلّ هذه المعطيات تجعلنا نفترض أنّ الأيام الستّة هي بمثابة ستّ مراحل متلاحقة للخلق، يعرضها لنا كاتب سِفر التكوين وكأنها لوحات في معرض فني ومرتبة بالتدرّج أراد الكاتب من خلالها تعليمنا بعض الأمور اللاهوتية.

خلق الله الوقت أولاً، لكنّ بدء الوقت، كما يقول القديس باسيليوس الكبير في كتابه «خلق العالم في ستّة أيام»، ليس الوقت. «البدء هو اللحظة التي تصل الحياة المخلوقة بالأبدية، لأنّه بدءاً من اللحظة التي يبدأ بها تدفّق الخلق، يبدأ العالم بالخضوع لنواميس الزمن، والتي بحسبها الماضي هو وقتٌ انصرم، والمستقبل هو وقتٌ لم يأتِ بعد، والحاضر هو مدّة لا تُحدّ ولا يُقبض عليها، منسابةٌ على الدوام وتنتهي بمجرّد ابتدائها».

يوضح القديس فيلاريت مطران موسكو أنّ الأرض المخلوقة من العدم هي في بداية الخلق مادّة خاوية تحمل في طيّاتها إمكانيّة الجمال والتناغم اللذين للحياة الأبدية. الظلمات وغطاء المياه ترمز إلى غياب تشكّل الأرض وتنظيمها. أمّا الروح فكان يحمي المادّة ويحرّكها «متنقلاً» من فوقها ونافخاً فيها «نَفَسَ» الحياة.

يقارن العديد من الدارسين بين رواية الخلق الكتابيّة وبين روايات الخلق في الحضارات القديمة كحضارتَي ما بين النّهرين واليونان. ويلاحظ مفسرو رواية الخلق الكتابية نوعاً من الـ«Geocentrism» (أي

الـوقتِ الـذي أجَّـلـه الآب* هكذا نحنُ أيضاً حينَ كنَّا أطفالاً كنَّا متعبِّدين تحت أركانِ العـالم* فلمَّا حـانَ مِلءُ الزمانِ أرسلَ اللهُ ابنهُ مـولـوداً مـن إمرأةٍ مـولـوداً تحتَ الـنـامـوس* لـيفتديَ الذين تحت الناموس لننالَ التبنّي.

الإنجيل

(متى ٤: ١٨: ٢٣)

في ذلك الزمان فيما كان يسوع ماشياً على شاطئ بـحـرِ الجليـل رأى أَخَـوَيـن وهـمـا سـمـعـانُ المدعـوُّ بـطـرسُ وأنـدراوس أخـوهُ يُـلـقـيـانِ شبكـةً في البحـر (لأنّـهـمـا كـانـا صـيَّـادَيْن)* فـقـال لـهـمـا هـلـمَّ ورائِي فأجعلكما صيَّادَي الناس* فـلـلـوقتِ تـركـا الشـبـاكَ وتبعـاهُ* وجـازَ من هـنـاك فرأى أَخَوين آخَرين وهما يعقوبَ بنُ زبدى ويوحنَّا أخوهُ في سفينةٍ معَ أبيهما زَبَدى يُصلِحانِ شباكهما فدعـاهـمـا* وللوقتِ تركـا السفينةَ وأباهما وتبعاهُ* وكـانَ يسوعُ يطوفُ الجليلَ كلَّـهُ يـعـلّـمُ في مجامعهم ويـكـرزُ بـبـشـارةِ الملكـوتِ ويَـشـفـي كـلَّ مـرضٍ وكـلَّ ضُعفٍ في الشعب.

محوريّة الأرض في رواية الخلق). فإن سفر التكوين يركز اهتمامه، ابتداءً من اليوم الثالث، على الأرض وعلى ما يخرج من الأرض. نجد في هذا الأمر رمزيّةً عميقة، كما يلاحظ الـلاهـوتـي المعـاصـر فـلاديمير لوسكي، الذي يقول: «إنّ المحوريّة هــذه لـيست مـن رواسب كوزمولوجيّات قديمة ليس لها أيّ عـلاقـة بمفـهـومـنـا للـعـالم من بعد كوبرنيكوس. هذه المحوريّة ليست فـيـزيـائـيّـة بـل روحـيّـة. فـالأرض المخلوقة من القوى الإلهيّة هي في المحور لأنّـهـا بَشَرَة الإنسان. لأنّ الإنسان هو كائن في المحور، هو كائن يُتحِد في ذاته ما هو محسوس بما يـفـوق الحسّ، لأنــه، يـفــوق الملائـكـة في الملء، يشـارك بـكـل تنظيم الأرض والسماء. وفي وسط الكون ينبض قلب الإنسان».

ما من حاجة إلى مقارنة رواية الخلق بـالنظريّات الحديثة عن خلق الـكـون. الحوار الـطـويـل بين الـعـلـم والـلاهـوت حـول الـعـلاقـة مـا بين الـوحي الإلـهي والـتطوّرات العلميّة يستمر ويبقى مفتوحاً. وقد جرت محـاولات عـديـدة لـتـفسير الـكـتـاب المقدّس على ضوء العلم الحديث.

يـقـول أحـد الـلاهـوتـيين المعـاصـرين: «من الـواضـح جدًّا أن الكتاب المقدّس لا يهدف إلى تقديم رواية علميّة عن نشأة الكون. لا بل من السّذاجة محاولة الدخول في صـراع فـكـري حـول تـفسير نصّ الخلق الـكـتـابي بـحـرفيّـته. الأسفار المقدّسة تأخذ في الإعتبار الإنسان عـلـى ضـوء الـعـلاقـة بين مـا هـو إنساني وما هو إلهي».

معنى هذا الكلام أنّ كتّاب أسفار الكتاب المقدّس غالباً ما يستعملون لغةً رمزيّة مجازيّة يعتمدون فيها على المعارف العلميّة في عصرهم، وهذا لا يعني أنّهم كانوا يكتبون كـتـابـاً عـلـميًّا. إستعمـالـهم لـلغـات عصرهم ومفـاهـيمه لا يعني نقل رسالة علميّة، وهذا الأمر لا يُنقِص في شيء دلالة الكتاب المقدس من حـيث هـو وسـيـلـة يـخـاطب الـلـه بواسطتها البشر معلناً لهم قدرته الخلّاقة.

رواية خلق العالم التي يعطينا إيّـاهـا الإصـحـاح الأول مـن سِفـر التكوين، تصوّر القدرة الخلّاقة التي لـلـه. فـالـلـه بـعدما أعطى الوجود للعالم الروحي وأقام فيه الملائكة، خلق العالم المادّي كأيقونة تعكس جمال الله الذي يتخطّى كلّ إدراك عقلي. لذلك فإن كلّ عناصر الخليقة هي مدعوّة في الكتاب المقدّس أن ترفع التسبيح لله (مز ١٤٨).

الكاهن المثال

لـقـد خـلـق الـلـه الإنسان عـلـى «صـورتـه ومـثـالـه» (تك ١: ٢٦). التاريخ الكتابيّ شهد انحرافاتٍ أدّت إلى الإبتعاد عن الله وعبادة أصنامٍ وآلـهـة مـتـعـدّدة. ولـكـن الـلـه الآبَ بمحبّته للبشر أرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح إلى العالم ليعيد إلى الإنسـان الصورة والمثـال الـلـذيـن فقدهما مع السقوط. الإبن الذي هو «بـهــاء مجده (أي الآب) ورسـم جـوهـره» (عب ١:٣) أصـبـح لـنـا «المثال». صار لنا مثالاً في العالم وصورةً نحتذي بها. خلّص البشريّة مـن الموت بـقـيـامـتـه، واقـتـادنـا بتعاليمه راسماً لنا طريق الملكوت. عـلّـمـنـا العـبـادة الحقّة في أكثر من حادثة ومنها حواره مع السامريّة. أسّس لنا على الصليب سرّ الشكر وقد سبـق وأوصـى تـلاميذه في العشـاء الأخير قائلاً «إصنعوا هذا لذكري» (لو ٢٢: ١٩).

الكاهن على مثال سيّده، يبذل.

تأمل

«لأنَّكم أنتم كلكم الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبدٌ ولا حرٌ، ليس ذكَرٌ ولا أنثى، لأنَّكم جميعكم واحد في المسيح يسوع».

أولئك الذين كانوا البارحة أو قبل البارحة عبيداً للخطيئة، تحت طغيان الشيطان، معتقلين ومجرورين من هنا وهناك، دون أية ضمانة، أمسوا اليوم في عداد الأبناء، وأزاحوا عنهم ثقل خطاياهم مرتدين الثوب الملكي. بضيائهم يتحدّون السماء، فنراهم متألّقين أفضل من النجوم، يبهرون بالنور وجه المحدّقين بهم. فالنجوم لا تتألّق إلاّ في الليل، لذا يتعذّر علينا أن نراها متألّقة في وضح النهار. أمّا هؤلاء، فالنهار لا يطفئ تألّقهم لأنّهم بمثابة نجوم روحيّة تتحدّى ببريقها الشمس نفسها، لا بل تفوقها لمعاناً.

فلنقبّل إذاً هؤلاء الإخوة الذين عرفوا أن يتألّقوا كالنجوم ويتحدّوا ببريقهم شعاع الشمس. ولا نكتفيّن فقط بأن نضمّهم إلى أحضاننا ضمًّا ماديًّا، بل فلنظهر لهم أيضاً، عن طريق هذا التعليم الروحي، ما نكنّ لهم من عطف، محرّضين إيّاهم على تأمّل فيض

ليس الكاهن بعامل أو مدير، بل هو خادم. هو الخادم الذّي يفوق الملوك والأمراء كما الملائكة إذ هو خادم الأسرار وله أعطى الروح القدس أن يلمس جسد الرب ودمه في كلّ قداس إلهي. ليس أكبر من أحد ولا وضيعاً أكثر من غيره وإنّما يجمع الحالتين في شخصه على مثال السيّد. هو الشخص الذي عليه أن يبذل ذاته عن الآخرين دون تردّد على مثال الرب يسوع. على الكاهن أن يكون كطير البجع الذي يجرح جسده ليطعم صغاره من دمه كما يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي.

كنيستنا الأنطاكيّة راسخة في هذا التسليم المتناقَل من جيل إلى جيل بين أبناء الكنيسة. في هذا الإطار نعيّد الأربعاء القادم الموافق في العاشر من تموز للقديس يوسف الدمشقي. الكاهن البيروتي الأصل الذي انتقلت عائلته للإقامة في دمشق حيث سيم كاهناً. خدم هذا الكاهن رعيّته بمحبّةٍ وغيرةٍ حتى الإستشهاد. كان القديس يوسف مثالاً يُحتذى به بين الكهنة من حيث غيرته على الإيمان القويم، على خلاص الرعيّة، وعلى القرابين المقدّسة.

غيرة الإيمان نابعة من عدم جوازِ تهاون الكاهن في الأمور المتعلّقة بالإيمان، هذا الإيمان الذي يجب صونه دون أيّ تغيير لما تسلّمناه من آبائنا القديسين. نذكر في هذا السياق قول القديس مرقس الأفسسي المدافع عن الإيمان القويم: «لا تهاون فيما يختصّ بالإيمان والعقيدة». هكذا جهد قدّيسنا يوسف للحفاظ على إيمان أبناء رعيّته وواجه بجسارة الإرساليّات الغربيّة التي كانت تقتنص المؤمنين في مدينة دمشق كما واجه الإضطهاد. غيرةٌ على الإيمان تذكّرنا بغيرة شفيعه يوسف خطيب مريم وخوفه على تلك العذراء التي ائتمن عليها.

الغيرة الثانية التي اشتعلت في قلب هذا القديس هي محبّة الرعيّة. لقد أحبّ رعيّته وبذل كلّ ما يستطيع من أجل تقوية إيمان أفرادها ومؤازرتهم. كما نعرف من سيرة حياته أنّه في العام ١٨٦٠ وأثناء المجزرة التي حصلت في مدينة دمشق، كان قدّيسنا خارج الكنيسة ولكنّه بذل قصارى جهده متنقلاً على أسطح الأبنية ليصل إلى كنيسته ويشدّد مَن احتمى فيها ويكون سندهم. على مثال السيّد الذي كان يشدّد تلاميذه قائلاً «ثقوا» «لا تخافوا»، هكذا سارع القديس يوسف إلى تشديد أبناء الرعيّة مع علمه أنّه لو بقي في منزله لربما نجا من عاقبة الموت.

أمّا الغيرة الثالثة فهي غيرته على القرابين المقدّسة. لقد كان يحتفظ بهذه القرابين في منزله لمناولة المرضى عند الحاجة، فحمل القرابين معه إلى الكنيسة. عندما أزمع أن يموت تناول القرابين لأنّه لم يخف على جسده من الفناء وإنّما خاف أن يدنّس أحدٌ القدسات. جعل القديس يوسف جسده، في آخر لحظة من حياته، هيكلاً للروح القدس، إناءً حمى به جسد المسيح.

لنا في هذا القديس الأنطاكي المعاصر مثالاً للراعي الصالح إذ قال الرب يسوع أن «الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو ١٠: ١١). الكاهن ليس موظفاً، عندما يرى المؤسسة متّجهة نحو الإفلاس يرحل. مهمّة الكاهن تبلغ ذروتها في الصعاب. في أوقات الراحة يتعرّض الكاهن لخطر التكاسل، أمّا

سخاء المعلّم وبهاء الثياب التي استحقّوا ارتداءها. «فإنّكم أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم» (غلا ٣: ٢٧)، على ما يقول الرسول. لذا، فليعملوا كل شيء من الآن فصاعداً وليتصرّفوا أينما وجدوا كأناس يتّخذون مسكناً لهم المسيحَ خالق الكون وسيّد الطبيعة. عندما أذكر المسيح، أعني أيضاً الآبَ والروح القدس، لأنّ المسيح نفسه قد وعد قائلاً: «إن أحبّني أحد يحفظ كلمتي وأبي يحبّه، وإليه نأتي وعنده نجعل مقامنا» (يو ١٤: ٢٣).

إنّ هذا الإنسان، في سيره على الأرض، يمسي كالذي يحيا في السماء، ويوجّه تفكيره ونظره إلى الأمور العلوية، مستهزئاً بأحابيل الشيطان الشريرة. فإنّ الشيطان، لدى رؤيته هذا التحوّل، يعود مضطرباً عندما يدرك أنّ الذين كانوا قبلاً تحت سيطرته، قد رفعوا إلى مثل هذه المرتبة، وكرّموا بشرف عظيم من لدن السيّد، لا يتجاسر على التحديق بهم وجهاً لوجه لأنّه لا يتحمّل البريق المنبجس من هذا المصدر. لقد أعمى البريق الذي نثره هذا الأخير عينيه، فأدار ظهره وانصرف.

القديس يوحنا الذهبي الفم

في وقت الشدائد فعليه أن يكون في الطليعة على غرار سيّده. الرب يسوع لم يقدّم أحداً ليصلب عنه بل ارتفع بذاته على الصليب ليكون مثال التضحية. الرب يسوع كان الراعي الذي يقود الخراف وبذل نفسه عن هذه الخراف، وهذه رسالة الكاهن. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: «الراعي هو مَن يتّحد بالله على الدوام فيقود شعبه كموسى». ويضيف القديس يوحنا الذهبي الفم بدوره «إنّ الجندي الشهم عندما يرى سيّده مجروحاً في المعركة يخوض المعركة بضراوةٍ أشدّ. في الشدائد يمسي الكاهن على غرار سيّده متّكلاً على الآب ولا يطلب مشيئته بل مشيئة الآب. يتقوّى من صورة الإله المصلوب فيحمل صليبه سلاح سلامٍ ليقود به رعيّته إلى برّ الأمان».

لا بد من الإشارة أخيراً والتذكير ان الكهنة هم جزء لا يتجزأ من شعب الله المؤمن، هذا الشعب الذي نال كل فرد منه نعمة الكهنوت الملوكي عند معموديته ومسحه بالميرون المقدس. كل مؤمن هو حامل نعمة الكهنوت الملوكي، أي ان كل مؤمن هو كاهن لله الحي، وما الكهنة الإكليريكيون إلاّ أولئك الذين كرّسوا كهنوتهم الملوكي وأرادوا عيش هذا الكهنوت إلى ملئه. لذا فإن كل مؤمن مدعو أن يقتدي بالمثال، الرب يسوع المسيح.

لدينا نحن المسيحيين ليس مجرّد مثالٍ من العالم بل «المثال» بالمطلق وهو الله. ليس مثالنا من المخلوقات بل الخالق بذاته. لو لم يتمثّل أبطال الإيمان من شهداء ومعترفين بالرب يسوع صائرين بدورهم مُثُلاً لنا، لكان أيّ تراخٍ منّا مبرّراً. إذ لنا هذه الخبرات ليس بمسموحٍ لنا أن نتراخى ونتعلّل بعلل الخطايا بل نحن مدعوون، كهنة ومؤمنين، لا إلى حفلاتٍ دنيويّة بل إلى العرس السماوي. مدعوون لنشارك، مع الملائكة ومَن سبقونا، في سرّ الشكر السماوي.

كتاب المعمودية والزواج والدفن

صدر عن مطرانية بيروت وتوابعها كتاب خدمة المعمودية والزواج والدفن (في الأيام العادية والفصحية). يُطلب هذا الكتاب من دار المطرانية (٠١/٢٠٠٦١٢) أو من مكتبة الرجاء (٠١/٥٦٤٤٤١).

من أقوال الآباء الشيوخ

+ قال الأب ايسيذورس البيلوسيوتي: حياة بدون كلام خير من كلام بدون حياة. فالأولى بالصمت تنفع، أمّا الثانية فبالصياح تزعج. لكن، إذا اقترنت الحياة بالكلمة، يولد مثال كل الفلسفة.

+ هو نفسه قال: أكرِم الفضائل ولا تهتم بالملذات، لأن الفضائل خالدة، أمّا الملذات فتزول بسهولة.

+ وقال أيضاً: كثيرون من الناس يريدون الفضيلة، إلاّ أنّهم يترددون في السير على الطريق التي تقود إليها. كذلك البعض الآخر لا يعتقدون أن ثمة فضيلة. فينبغي أن نقنع الأولين بالتخلي عن كسلهم وتهاونهم، وأن نعلّم اللاحقين أن الفضيلة هي بالحقيقة فضيلة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb